اللغة الخالدة

د.أبو أوس إبراهيم الشمسان
(أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الملك سعود)

لن تجد لغة يفهم أهلها ما دُوّن فيها قبل أربعة عشر قرنًا سوى العربية، وإنّا لنحس الزهو والفخار أن كانت لغتنا اليومَ جامعة للأصالة والاتصال، وكان أن وهبها الله عاملًا من أهم عوامل العناية بها حين اختارها لغة لآخر رسالاته، رسالة الإسلام للعالم، في كل بقعة من بقاع الأرض تتردد تلاوة القرآن بها كل يوم، وهذه أفئدة من الناس تقبل على تعلمها على الرغم من ظرفها التاريخي اليوم، فما هي لغة علم تطبيقي ولا هي لغة عمل ميداني؛ فقد استبدت بهذا لغات أحسنَ أهلُها التعلمَ والعملَ، وبهما سيطروا على العالم، ومن هنا كانت للغاتهم الغلبة، وأسعد هذا ازورار من أهل العربية عنها وازدراء لها ولمن يحفلون بها، ولذا لا تجد مستعملَها مهما علا كعبه في السلطة يحتشم عند استعمالها، وطالما سمعنا الوزراء وغير الوزراء لا يأبهون بما يقرؤونه على الناس، ولا يعنّون أنفسهم بالتماس الضبط الصحيح، ولست تعدم أن يقع مثل ذلك من طائفة كبيرة من أساتذة العربية ومن المثقفين والشعراء والأدباء، بل صارت الدواوين الشعرية والروايات تنشر من غير التفات إلى تدقيق لغتها. أما المتخصصون بغير علوم العربية وآدابها فلا يجدون أنفسهم معنيين بالصواب، وهم يتحجّجون بأنهم غير متخصصين بالعربية، وكأن العربية إنما مقصور استعمالها استعمالًا صحيحا على ذوي الاختصاص بها.

وابتليت العربية أشد البلاء ببعض المتخصصين من أهلها، رأوا أن هذه اللغة ينبغي النظر إليها نظرة جديدة، وأن توصف وصفًا جديدًا، وأن يُنسى ما كان من أمر وصفها الأول، وتُطّرح قواعد القدماء التي أسسوها على وصف استعمال جمهرة العرب للغتهم، وينطلق هؤلاء من فكرة غربية تعلموها، ومن طريقة في درس اللغات ثقفوها وظنوا أنها تصلح للغة القرآن الخالدة، يرى هؤلاء أن اللغة هي ما يستعمله الناس اليوم لا ما استعملوه قبل قرون، وأن القواعد التي نأخذ أنفسنا بها إنما كانت في زمن مضى، وهي غير صالحة للغة اليوم، وهذا القول إن صدق على لغة غير العربية فإنه لا يمكن أن يصدق على العربية؛ لأن العربية متصلة وتلك اللغات ذات أطوار منبت بعضها عن بعض، فالإنجليزي اليوم لا يفهم لغة شكسبير، وليس هذا أمر العربي الذي يفهم معظم تراثه في يسر وسهولة، لسنا ننكر أن المعجم العربي ناله تغير بسبب تغير بيئات العرب وتغير أحوالهم فاستغني عن ألفاظ وجدّت ألفاظ، وليس هذا بالأمر المشكل، وأما أبنية العربية الصرفية وتراكيبها النحوية فما زالت غضّة وافية بأغراضها، وكان من نعم الله أن رزقت العربية بعلماء أفذاذ أفنوا أعمارهم في سدانتها فأحسنوا وصفها ثم

أحسنوا اكتشاف نظامها، وما زال النحو العربي مبعث دهشة وإكبار، نعم ندرك أن في النحو مسائل هي بحاجة إلى المراجعة والمعالجة، ولكنه بالجملة بناء شامخ متماسك، وللمعيارية التي أخذ معلمو العربية أنفسهم بها فضل محافظتها على أصولها بما كفل لها أمر الاتصال.

وهبنا أردنا أن نصف العربية الفصيحة الحاضرة، كما قد تسمى، فأي عربية نريد؟ أعربية الصحافة أم عربية الإعلام أم عربية وسائل التواصل الاجتماعي أم عربية الأدب والبحوث العلمية؟ إنك تصادف مستويات مختلفة من هذه العربية، وإن المدقق المنصف ليحس ما اتصفت به هذه العربية من صفات أفقدتها مهارات وطاقات لغوية وجماليات وجدناها في لغة أجدادنا الخالدة، ومن أوضح أمثلة ابتعاد لغة المعاصرين عن منابعها اتسامها بالترهل اللغوي من مثل ترك استعمال حروف المعاني استعمالها الموجز إلى حرف معنى مؤلف من غير كلمة واحدة، فتراهم وهم يريدون الحرف (أما) يقولون (أما بالنسبة لـ) أو (أما فيما يتعلق بـ) وهذا قريب من سلوك العامية في تعبيرها عن (لأنّ) في التعليل بقولها (على شان انه).

ومن سمات اللغة المعاصرة تجنبها بناء الفعل للمفعول واستبدلوا بذلك الفعل (تمّ) مسندًا إلى مصدر الفعل الأساسي، فيقولون (تمّ افتتاح المصنع) وهم يريدون: افتُتِح المصنع، والأدهى من ذلك أنهم قد يصوغون هذه الصياغة من غير حاجة، أي تحويل الفعل من البناء للفاعل إلى البناء للمفعول بلا سبب واضح يدعو إلى ترك الفاعل للخوف منه أو عليه أو للجهل به أو لشهرته أو تكريمًا له أو تحقيرًا له، ولغياب هذه الأغراض يعودون إلى ذكر الفاعل في نهاية الجملة على طريقة اللغة الإنجليزية، يقولون (تمّ افتتاح المصنع من قبل الوزير)، وهم بهذا تركوا الجملة الأصلية: افتَتح الوزير المصنع، أو المصنع افتتحه الوزير.

ومن سمات اللغة المعاصرة فصلها بعض الحروف عن الأفعال المتعلقة بها، وأشهر أمثلة ذلك استعمال (على الرغم)، مثال قولهم (على الرغم من إدراك قائدي المركبات خطورة السرعة إلا أنهم يسرعون)، فلا تجد (على الرغم من) تعلق بفعل، وتجد (إلا) مقحمة لا تعلم ما وظيفتها، ولكن المعنى يتضح عند إصلاح الجملة بقولنا: على الرغم من إدراك قائدي المركبات خطورة السرعة يسرعون، وهي محولة من الجملة الأصلية: يسرع قائدو المركبات على الرغم من إدراكهم خطورة السرعة.

ومن سمات اللغة المعاصرة أنها قد تغفل عن شرط المطابقة بين النعت والمنعوت في بعض استعمالاتها، ويكاد يطّرد هذا في نعتهم المؤنث بالصفات المذكرة على بناء (الأفعل) مثل: الأهم والأقدم والأوسع، يقولون: هذه المسألة الأهم، وهذه العملة الأقدم، وهذه الأرض الأوسع، كما يقولون هذا الأمر الأهم، وهذا النقد الأقدم، وهذا المكان الأوسع، فلا فرق حينئذ عندهم بين مذكر ولا مؤنث، والصواب أن تستعمل في نعت المؤنث الصفات على بناء (الفعلى)؛ ولكن ما ورد من المثل على هذا البناء في العربية ليس كثيرًا كثرة أساغت استعماله في السمع، إذ نجد الكبرى والصغرى والدنيا والقصوى والعليا والأولى والحسنى والقدمى والطولى؛ ولكن هذا لا يستمر، وربما يجد من يريد حجة للغة المعاصرة في تعميمها الصفات على (الأفعل) للذكور والإناث، لأنه لا يريد أن يقول: الهمّى في مقابل الأهم، ولا الوسعى في مقابل الأوسع؛ ولكن المخرج سهل والسبيل يسير؛ وذلك بإضافة

(أفعل) فيسوغ تذكيره، نقول: أهم قضية، وأوسع أرض. وقد يغفل عن المطابقة تعريفًا وتنكيرًا فتجدهم ينعتون المعرفة بنعت النكرة، يقولون مثلًا: وقف الرجل طويلُ القامة، وهو خلل يتبين لك حين تنكّر (الرجل): وقف رجلٌ طويل القامة، فالصواب أن يقال: وقف الرجل الطويل القامة.

ومن سمات اللغة المعاصرة غياب الفرق بين بعض الأبنية الصرفية، فقد لا يفرقون بين (يَفْعَل) من الفعل الثلاثي المجرد و(يُفْعِل) من المزيد بالهمزة لأنهم يفتحون حرف المضارعة منه، مثال ذلك يقولون: يَهْدي الرجل ابنه إلى الخير، ولكنهم أيضًا يقولون: يَهْدي الرجل ابنه سيارة، والصواب كما في لغتنا الخالدة: يُهْدي الرجل ابنه سيارة.

ومن خلط اللغة المعاصرة خلطها بين الفعل المعتل بالألف والمعتل بغيرها عند إسناده إلى واو الجماعة، يقولون في مثل (الرجل دعا إلى الخير): الرجال دعُوا إلى الخير، والصواب: الرجال دعَوا إلى الخير. فالضم يكون للفعل المنتهي بياء ففي مثل (الرجل رضيَ بالأمر) يقال: الرجال رضُوا بالأمر.

ومن سمات اللغة المعاصرة فكّ ما حقه الإدغام، فتراهم يستعملون (المحاجَجَة) والصواب: المحاجَّة، ومثلها (المحاصَصَة) وصوابها: المحاصّة.

والسؤال الآن هل نحن ضد وصف اللغة المعاصرة؟ والجواب كلا لسنا ضدّ وصفها، ولا ضد الوقوف عند سماتها ومعرفة تغيراتها؛ ولكن موقفنا يختلف بعد هذا الوصف والوقوف، فالمستغربون يريدون وصفها لإقرار ما آلت إليه، وتثبيت قواعدها الراهنة مهما كانت معاندة أو مخالفة لقواعد اللغة العربية الفصيحة، لغة القرآن والشعر العربي ولغة التراث النثري في كل ميادين الاستعمال، وأما نحن فنريد الوصف لرد هذه اللغة إلى أصولها ردًّا جميلًا.

الوصف اللغوي الحديث للغة مشروع من حيث المبدأ ما دام ملتزمًا بثوابت اللغة أبنيتها الصرفية وأبنيتها التركيبية، وأما مجال التفسير والتعليل فواسع لا مشاحّة فيه، بل الدعوة إلى التجديد فيه مطلوب ما كان هذا التجديد أصدق في الوصف وأدق في التعليل وأقرب إلى الإقناع، ونحن المشتغلين بالنحو المزاولين لقضاياه ومسائلة ندرك كل الإدراك أنه في حاجة ماسة إلى فضل مراجعة.

وما أحرانا ونحن نحتفل كل عام باليوم العالمي للغة العربية أن تكون كل أيام السنة في بؤرة اهتمامنا فننزلها منزلها من نفوسنا، وأن نقرب لغة خطابنا اليومي إليها، وأن نسعى جاهدين إلى أن نجعلها لغة علم ولغة عمل، وهذا شأن لغات العالم كلها، وعلينا أن نكون حريصين الحرص كله أن تكون هذه اللغة محافظة على سماتها القديمة؛ لأننا نريدها دائمًا أصيلة متصلة، نريد أن نقرأ بها صحف اليوم كما نريد أن نقرأ بها الشعر الجاهلي.

وحريّ بنا أن نعلمها صغارنا خير تعليم كما تعلم كل لغة لأهلها، وإنّ ما يحز في النفس ويبعث على الكدر أن ترى أجيالًا من أحفادنا يتحدثون لغات أجنبية في عقر دارنا، ولا يكادون يقيمون جملة بالعربية؛ لأنهم أدخلوا المدارس الأجنبية لضعف التعليم في المدارس العربية ولاحتفاء السوق بالناطقين بلغة الأعاجم.

إن الاحتفال باليوم العالمي للغة لن يجدي ما لم يجد طريقه إلى الأفعال لا الأقوال فما نفع ألف قصيدة في مدحها، إن التفكر في حسن تعليمها والسعي نحو تمكينها لغة علم وعمل هو أفضل احتفال بها لأنه هو الاحتفال حقّا.